مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 17 عدد: خاص جانفي 2022
العنوان: فكرة الله بين ديكارت وسبينوزا ص.ص 1167- 1185.

فكرة الله بين ديكارت وسبينوزا

عبيدالله زهرة[1]، بلحنافي جوهر[2].
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطنبولي- معسكر[1].
zahra.abidallah@univ-mascara.dz
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطنبولي- معسكر[2].
djouher.belhanafi@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2020/04/20؛ تاريخ القبول: 2020/05/07

Title – the Idea of God between Descartes and Spinoza

A. Abidalllah zahra, B. Belhanafi djouher.

Abstract:

Research into God's problem was linked to the mental philosophers, Rune Descartes and Baruch Spinoza, who used mental evidence to prove and defend God's existence. They had a common principle of reason, but Descartes made metaphysics the principle in all knowledge as well as knowledge of God and did not deviate from the sceptical approach in his research on this subject, and provided evidence of the existence of God, and in return Spinoza took an opinion contrary to God linked to nature and considered it the inner cause of things. This is why we looked into it and compared Descartes's metaphysical thought to Spinoza's natural thought about God's problem.

Key words: Descartes**;** Spinoza; God; essence; nature**.**

الملخص:

اقترن البحث في مشكلة الله باسم كبار الفلسفة العقلانية في العصر الحديث.وعلى رأسهم رونيه ديكارت وباروخ سبينوزا حيث استخدموا الأدلة العقلية في إثبات وجود الله والدفاع عنه. ، رغم أن الانطلاقة كانت واحدة والمنهج كان عقليا غير أن ديكارت جعل الميتافيزيقا هي المبدأ الأول ولم يخرج تصوره عن الممارسة الشكية التي خاضها في تأصيل الحقيقة بما في ذلك الحقيقة الالهية، ولتبيين

ذلك يجب توضيح كيفية استثماره لمنهجه الخاص في الوصول إلى المعرفة الإلهية وأهم الأدلة التي بناها للبرهنة على وجود الله. في المقابل فقد اعتنق سبينوزا رأيا مخالفا عن الإله يقترن بالطبيعة ويجعل منه العلة الباطنة للأشياء جميعا، الأمر الذي يدفع إلى محاولة تقصي حقيقة الأمر بالمقارنة بين الطرحين حول المشكلة من خلال توضيح الجانب الميتافيزيقي الديكارتي والفيزيقي السبينوزي حول الطرح اللاهوتي وصولا إلى الفصل في مسألة التوافق أو التعارض بينهما.

الكلمات المفتاحية: ديكارت؛ سبينوزا؛ الله؛ الجوهر؛ الطبيعة.

مقدمة:

دخل الله إلى الفلسفة من بابها الواسع، بل لم تخل أية فلسفة عريقة من السؤال حول فكرة الله، فقد ظهرت الدراسات الفلسفية الدينية التي تناولت المسألة قديما في ما يعرف بالميتافيزيقا، حيث عني هذا المجال بالبحث في ما وراء-الطبيعة ووجود الخالق. وفي محاولة لضبط هذا المفهوم سنجد بأن الاعتقادات حول فكرة الله كانت مختلفة عبر التاريخ، فالبعض يؤمن بوجود إله واحد فقط (التوحيد)، بينما يؤمن البعض الآخر بتعدد الآلهة وبأنها تتجلى في رب واحد، فاختلف مفهوم الله باختلاف التصورات الدينية، وعرف المفهوم انتقالا يوازي مراحل البحث الذي قطعها الإنسان في الوصول إلى حقيقة الخالق ليصل تصوره إلى المفهوم الأكثر تعقل للإله، فأصبح الله هو الحقيقة المطلقة.

كانت الميتافيزيقا في فلسفة أرسطو قد عنيت بالبحث عن فكرة المسبب الأول وقدم فكرة واضحة وصف من خلالها الله بالمحرك الذي لا يتحرك، فكانت هذه النظرة بمثابة الشعلة الأهم في الأبحاث الفلسفية التي أوقدت لهيب الفلاسفة، فبحث الفلاسفة المسلمين في كل ما يتعلق بالمسألة وطرحت الأسئلة حول ماهية الله ووجوده وأسمائه وصفاته، في وسط نوع من التعنت والرفض من قبل رجال الدين مما صعب مهمة فلاسفة ذلك العصر، ليظهر مفهوم اللاهوت الطبيعي من قبل الفلاسفة العقلانيون في أوروبا العصر الحديث،

معلنين بذلك عن إسهاماتهم في المسألة محاولين دراستها دراسة عقلانية وفق ما يتطابق مع عقيدتهم ومنهجهم.

ومن أبرز العقلانيين تأثيرا ومن أولهم تأسيسا لهذه النزعة المناهضة للتجريبية نجد الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكارت ولا يقل عنه أهمية الهولندي باروخ سبينوزا، فقد أعطى هؤلاء للعقلانية اسما ومكانة في ظل القيود والضغوطات التي كانت تمارس ضد كل تحرر عقلي خاصة إذا تعلق الأمر بالبحث في المسائل الدينية وحاول كل منهما البحث في حقيقة وجود الله، فإذا كان المبدأ الذي انطلق منه كل ديكارت وسبينوزا واحدا وهو السير على تجذير العقلانية وتجاوز الفكر السكولائي، فبماذا تميز إله سبينوزا عن الله في فلسفة ديكارت؟ وماهي نقاط التقاطع والتنافرالتي تشكلت بينهما في خضم خوضهما في المسألة الإلهية؟ ويمكن صياغة الفرضيات التالية كحل مؤقت لهذه الإشكالية:

- يمكن أن لا يختلف سبينوزا عن ديكارت في تناول المسألة ويكرس هو الآخر للشك الديكارتي المبني على أسس ميتافيزيقية.
- وقد يستقل الطرح السبينوزي ويتميز عن سابقه ويأتي بتصور جديد يتجاوز به الطرح الميتافيزيقي إلى طرح فيزيقي.

هذه الدراسة جاءت بهدف إثراء البحث الفلسفي في مجال الدراسات الدينية، والعمل على المقاربة والمقارنة بين عمالقة الفكر الفلسفي من أجل توضيح أفكارهم في مسائل مرتبطة أشد الارتباط بجوهر الإنسان وهي الدين والمقدس التي لا تخلوا أي مرحلة فكرية منها، والعمل على ربطها بمستجدات الوضع الراهن وتقصي الحقيقة.

ولمعالجة هذه الإشكالية اعتمدنا المنهج التحليلي وذلك لتحليل موقف كل من ديكارت وسبينوزا حول الموضوع، وصولا إلى المقارنة بينهما بالمنهج المقارن.

أولا: فكرة الله عند ديكارت:

من القضايا الأساسية التي أخذها **رونيه ديكارت René Descartes (1596_1650)** على عاتقه هي العمل على حل "أزمة

اليقين" وتجاوز كل معرفة ترتد إلى الشك، وذلك بالاعتماد على أسس منهجية ديكارتية تعد السبيل الديكارتي الخاص في تأصيل الحقيقة وإثباتها وقد ظهر الشك كمنهج عند ديكارت في عدة قضايا معرفية وتأصلت في أعماله التي نذكر منها "تأملات ميتافيزيقية" وكتابه "مقال في المنهج".

وكان الهدف الأسمى لديكارت في هذه الممارسة الشكية هو تجاوز تلك الأزمة سابقة الذكر والعمل على بلوغ الحق عن طريق الشك، الأمر الذي يجعلنا نحاول تقصي القضايا التي تناولها ديكارت بالشك من أجل التيقن منها، ولعل فكرة "الكائن الكامل" التي أدى إليها الكوجيتو الديكارتي لها هي الأخرى جذور شكية عمل ديكارت على محاولة إثباتها انطلاقا من أسس عقلانية لا تخرج عن العقيدة العقلانية لهذا الفيلسوف، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن مكانة فكرة الله في فكر ديكارت، فهل استطاع ديكارت إثبات وجود الله في خضم انفعالاته الشكية التي جعلها سبيل الحق؟ وماهي الأدلة التي تجاوز بها ديكارت الشك ليثبت وجود الله؟ أو بتصور عام كيف تمظهرت فكرة الله كحقيقة مطلقة في ثنايا الشك الديكارتي؟

"ما يمكن أن يجعلنا نشك في الأشياء التي نتصورها بوضوح هو أن الله ربما قد شاء إضلالنا، ومنه إذن فلينبغي إذا أردنا أن نكون على يقين من شيء أن نبحث هل هناك إله مضل" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 130)، هذا ما جاء في التأمل الثالث من تأملات ديكارت الميتافيزيقية، وهو ذلك التأمل الذي تناول فيه ديكارت الله وأنا موجود، ويتناول ديكارت في الموضوع نفسه في التأمل الخامس الذي بحث فيه ماهية الأشياء المادية والعودة إلى الله، "فالبحث في الأشياء المادية هو بحث يدفعنا إلى البحث في الخصائص المادية لهذه الأشياء(الامتداد، الشكل، الحركة)،فهذه الأشياء المادية وخصائصها تشكل فكرة واضحة ويقينية وثابتة لأنها لم ترتد إلينا من الحواس الخادعة وهذه الضرورة المطلقة تلزم عنها وجود الله كحقيقة تعادل في اليقين أية حقيقة رياضية" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 204).

فالمعرفة بالأشياء تتوقف على معرفة الله؛ فهذه الأخيرة تيسر الوصول إلى الوضوح التام للأشياء المادية الجسمانية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الهندسة باعتبارها مصدر الوضوح واليقين. "لم يرد ديكارت أن تكون معرفتنا لوجود الله عن طريق العالم -كما تصورها قبله بعض الفلاسفة واللاهوتيين- وإنما رأى أن المعرفة بوجود العالم هي التي تفتقر إلى وجود الله (مصطفى، 2015، صفحة 100)."

فالمعرفة الكاملة بجميع الموجودات لا تحقق إلا بيقين فكرة اللامتناهي، فبدون معرفة الله لن تتحقق أي معرفة أخرى.

1- الميتافيزيقا الديكارتية:

لطالما شكلت الفلسفة الديكارتية منعطفا متميزا في الفكر الفلسفي، واعتبر ديكارت الفلسفة هي المعرفة الحقة لشموليتها للعلم، بل اعتبرها والعلم شيئا واحدا يجمع بينهما ذات المنهج، فهذه العلاقة التكاملية بين المعرفتين حددتها شمولية الفلسفة والتي تتضمن عدة فروع وجعل مبدأها الأول هو الميتافيزيقا، ليحافظ بهذا ديكارت على التصور الكلاسيكي للفكر الفلسفي، ولم يواكب التطورات التجريبية التي لازمت عصره، وتميز نوعا ما عن الطرحين باعتماده معيار الوضوح واليقين في منهجه الرياضي الذي يستمد يقينه من اتساق النتائج مع المقدمات، فالميتافيزيقا الديكارتية هي علم يقيني ودقيق يثبت صدقه من البراهين الرياضية. فقد جعل ديكارت المنهج الرياضي هو المنهج الوحيد الملائم للفكر في جميع الميادين سواء كانت ميتافيزيقية أو فيزيقية، " وقد أيقن ديكارت أنه لو طبق على كل علم المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول إلى براهينهم، لبلغت العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شيء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم. (ديكارت، مقال عن المنهج، 1986، صفحة 92)"

إن الميتافيزيقا هي المبدأ الأول للمعرفة بما في ذلك معرفة الله ومن خلال بيان صفات الله، فجميع العلوم ترتد إلى حقيقة أن الحقيقة ليست علة ذاتها بل مرتبطة بعلة أخرى، لهذا كان هم العلماء هو البحث عن هذه العلل وليس البحث عن الحقائق في حد ذاتها، مما جعل

الحقائق العلمية حقائق مقتصرة على معرفة الأشياء المتناهية فقط، دون البحث فيما وراء الأشياء(الميتافيزيقا)، هذه الأخيرة التي جعلها ديكارت المبدأ لجميع الحقائق،" فالمظاهر الزائلة للحياة المادية لا تقوم بنفسها وإنما يجب أن تكون وراءها قوة خفيه أزلية أبدية، هي علة الموجودات وهو الذي تسميه لغة الدين-الله- لهذا كانت الحاجة ماسة إلى علم يبحث عن هذه المدركات المتقدمة التي تنتفع بها العلوم الأخرى وهذا العلم هو ما بعد الطبيعة" (رابوبرت.أ.س، 2012، صفحة 19).

فالميتافيزيقا هي علم يبحث في العلل الأولى للموجودات ويتجاوز المادة إلى ما وراء المادة ليجسد حقيقتها الأولى، حيث صرح ديكارت:" رأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول، واستنبطت منه المبادئ التالية: أن هنالك إلها هو خالق كل ما في العالم. ولما كان هو مصدر كل حقيقة فانه لم يخلق أدهننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التي نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا. تلك هي المبادئ التي اصطنعتها من الأشياء اللامادية أو الميتافيزيقية، ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادئ الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية، أي أن هناك أجساما ممتدة طولا وعرضا وارتفاعا، وأن لها أشكال وتتحرك على صور مختلفة" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 09).

هذا يقودنا إلى الحديث عن المنهج الديكارتي الذي جعله السبيل الأمثل لجميع العلوم، وهو منهج حدد فيه أربعة قواعد. ويعتبر ديكارت هذه القواعد بمثابة الطريق الموثوق والسهل لبلوغ الدقة والحق والابتعاد عن الباطل ويمكن تطبيقها ببساطة في مختلف المجالات. " تتمثل القاعدة الأولى فيما يسمى بقاعدة اليقين: التي تنص على انه لا يجب أن أقبل شيء علة أنه حق، ما لم أعرف يقينا أنه كذلك، أما القاعدة الثانية فتسمى بقاعدة التحليل؛ أي أن تقسم المعضلة التي تدرس إلى أجزاء بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه، والقاعدة الثالثة؛ تسمى بقاعدة التحليل والتركيب؛ أي السير بالأفكار بنظام، بادئ بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيبا،أما القاعدة الأخيرة فهي

قاعدة الاستقراء التام أو الإحصاء التام؛ بغرض التحقيق والمراجعة الكاملة الشاملة ما يجعلنا على ثقة من أننا لم نغفل شيئا" (ديكارت، مقال عن المنهج، 1986، الصفحات 95-98).

فالقواعد جاءت مرتبة ترتيبا تدريجيا يسهل الوصول إلى الهدف، بدءا من التجاوز الأحكام المسبقة والأفكار غير الواضحة لأنها كثيرا ما تكون سبب الوقوع في الخطأ فلا يجب قبول إلا ما هو واضح وجلي للعقل أي المعارف البديهية.

لينتقل بذلك إلى القاعدة الثانية والتي تأتي للتحقق من صحة الأفكار التي لا تتميز بذلك الوضوح الذي تناولته القاعدة الأولى، ففي هذه الحالة لا بد من تحليل هذه الأفكار الغامضة إلى أجزائها الأولية لتتوضح جزئياتها وتستكشف حقائقها، لتكتمل العملية مع القاعدة التي تليها وذلك من خلال إعادة تركيب الأجزاء المتحقق منها.

وتأتي القاعدة الأخيرة وهي بمثابة المراجعة العامة لجميع المراحل السابقة وتكتمل بهذه القاعدة عملية تحصيل معرفة يقينية ضرورية وشاملة لا يشوبها الشك، وهذه المنهجية صالحة لكل أنواع البحوث والمعارف دون استثناء.

2- أدلة وجود الله عند ديكارت:

في دفاعه عن الإيمان واثبات وجود الله انتهج ديكارت أدلة فلسفية عقلانية، معتبرا إياها الأكثر نجاعة من أدلة اللاهوت (أي الأدلة الدينية)، وذلك من أجل إقناع غير المؤمنين بوجود الله اله فلا ينبغي أن نعتقد بوجد الله لان الكتب السماوية جاءت بذلك، وإنما ينبغي الإيمان به لان الأدلة والبراهين العقلية تؤكد ذلك. وجاء هذا الدفاع في شكل ثلاثة أدلة وهي كالأتي:

الدليل الأول: الدليل الأنطولوجي

ويقوم هذا الدليل على الاستدلال على وجود الله بالاستناد الى وجود فكرة الله الكامل في الذهن حيث يقول ديكارت" كل فكرة لا بد لها من علة يكون لها من الوجود الفعلي بقدر ما يكون لتلك الفكرة من وجود موضوعي، وإذن ففكرة الكامل قد جاءتني من وجود كامل" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 119)، ويمكن صياغة هذا الدليل على شكل القياس التالي:

1. "الله أو الكائن الكامل هو الكائن الحائز على جميع أنواع أو صفات الكمال
2. الوجود أحد أنواع صفات الكمال.

النتيجة: الله الكائن الكامل موجود (مهدي، 1983، صفحة 132)".

فينطلق من مقدمة بديهية تقر بأن الله كائن كامل بصفات الكمال التي يتصف بها، وينتقل إلى قضية بديهية أخرى تقر بأن الوجود هو أحد صفات الكمال، فإذا كان الله كامل والوجود أحد صفات هذا الكمال فان الله موجود بالضرورة، لكن هذا يجعلنا نتساءل عن معيار صدق وصحة المقدمات التي انطلق منها ديكارت على واعتبار أنها قضايا مطلقة وكلية.

" يرى ديكارت أن هناك جملة من الأفكار الفطرية التي يمتلكها الذهن أو تمتلكها النفس بالفطرة فكرة الكائن الكامل اللامتناهي، الحائز على كل أنواع الكمال؛ هذه الفكرة لم يستمدها من الحواس، ولا من إبداع الذهن وإنما خلقت معنا مثلها مثل فكرة المثلث الذي يقتضي منا التسليم بأن زواياه مساوية للقائمتين" (مهدي، 1983، صفحة 133)، فكذلك فكرة الكائن الكامل الحائز علة جميع الصفات، وفكرة الوجود كأحد هذه الصفات تقتضي منا التسليم بها تسليما ضروريا، ويصبح بهذا الكائن الكامل موجود فعلا.

" جاء في رد ديكارت عن الاعتراضات التي طالته، أن الله هو الجوهر الذي ندرك أنه كامل الكمال الأسمى والذي يدرك أنه كامل الكمال الأسمى والذي لا يتصور فيه أي شيء يتضمن أن حدد الكمال، من هنا كانت ماهية الله تتضمن وجوده الضروري الذي يتجاوز الوجود الممكن" (نضمي، 2003، صفحة 29).

فقد شكلت فكرة الجوهر عند ديكارت أهمية كبيرة ولا تخرج هذه الفكرة عن معنى ماهية وحقيقة الشيء فهي صفة أساسية في الشيء الموجود التي يمكن أن تعقل غير أن فكرة الجوهر كصفة لله تختلف عن جوهر الأشياء الخارجية، يوجد بواسطته شيء ندركه أي خاصة أو كيف مما لدينا عنه فكرة حقيقة، فالجوهر بهذا المعنى يشمل الصفات الجسمية للأشياء الطبيعية مثل الامتداد والشكل ,.... حيث جاء في التأمل الثالث لديكارت" إن الأفكار التي تمثل جوهر تحتوي

على قدر من الوجود الذهني أكثر من تلك التي تمثل صفاتا أو أعراضا والفكرة التي تمثل الجوهر اللامتناهي تحتوي على أكثر من تلك التي تمثل الجواهر المتناهية" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 130).

الدليل الثاني: الدليل الإنساني أو التجريبي

يذكر ديكارت أن الأفكار متعددة من بينها ما يعرف بالأفكار الفطرية، وهي أفكار موجودة في النفس بالفطرة تتضمن هذه الأفكار الفطرية فكرة "الكائن الكامل" الذي يتوفر على جميع صفات الكمال الذي تفتقر إليه الذات الإنسانية ومن هنا كان منطلق هذا الدليل.

" أن وجود فكرة الكائن الكامل اللامتناهي في النفس تجعلنا نتساءل عن مصدرها هل هو الإنسان نفسه؟ ليس هو بالطبع لأنه ناقص، فهو يشك ويخطئ ويظن وهذه الصفات ناقصة، بل إن عدم الكمال هو الذي دفع الإنسان إلى امتلاك الإنسان الكامل اللامتناهي، وهو سبب أيضا في شعوره بالنقص وبالتالي دلالة على وجود الله" (مهدي، 1983، صفحة 141). ففكرة الكائن اللامتناهي الكامل لم تشكلها الذات في النفس أو الذهن لأنها أقل كمال، وبالتالي لا يمكن أن تكون الذات باعتبارها جوهر متناه على الكامل اللامتناهي، لأن المبدأ القائل بأن لكل معلول علة يفرض أيضا أن تكون هذه العلة موازية للمعلول والأمر ليس كذلك، يقول ديكارت:" كل فكرة لا بد لها من عله يكون لها من الوجود الفعلي بقدر ما يكون لتلك الفكرة من وجود من الوجود الموضوعي، وإذن ففكرة الكامل جاءتني من وجود كامل" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 119).أي أن فكرة وجود الكائن الكامل علتها الكائن الكامل نفسه لأنها العلة الوحيدة المكافئة لوجوده، " يستحيل أن تكون الصور الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم، كما يستحيل أن تكون من نفسه، إذن لابد أن تكون قد ألقيت إليه بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا، بل ولها ذاتها كل الكمالات وهذا الكائن هو الله" (ديكارت، مقال عن المنهج، 1986، صفحة 89).

هنا يستند ديكارت إلى مبدأ العلية الذي يفترض أن العلة يجب أن تكون موجودة، وأن يكون وجودها كامل ككمال وجوده(الكائن كامل الصفات). وتأكيدا لهذا يذكر ديكارت في تأملاته "أنه إذا بلغ

الوجود أو الكمال الموضوعي لفكرة من أفكاري درجة تجعلني أعرف في وضوح أن هذا الوجود أو الكمال ليس فيا على جهة الصورة أو جهة الشرف، وبالتالي لا أستطيع أنا نفسي أن أكون أنا علته (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 148)"، فبهذا الإقرار باستحالة أن تكون الذات الإنسانية هي علة لوجود الله، يمكننا أن نطرح تساؤل عكسي، فهل يمكن أن يكون الكائن الكامل علة لوجود الكائن المتناه؟

الدليل الثالث: دليل الخلق المستمر

وهو دليل يستمد مصداقيته من الدليل السابق، الذي أثبت من خلاله ديكارت صفة الكمال وأن الله موجود وهو علة ذاته ولا يمكن أن تكون له علة أدنى منه كالذات الإنسانية مثلا، باعتبار الذات كائن متناه وليس له من صفات الكمال، فصفاته قاصرة وناقصة أثبت قصورها فعل الشك الذي يلازمها. وانطلاقا من مسلمة ديكارت التي تقول بأن كل معلول لابد له من علة أكمل منه، فلابد أن للذات علة أكمل منها وتتميز بالكمال التام.

في بحثه عن هذه العلة ينفي ديكارت أن يكون الوالدين عله لوجود الذات حيث جاء في التأمل ثالث من تأملاته" وأقول أخيرا أنه فيما يتصل بأبوي الذين يبدوا أني قد ولدت منهما، مع أنه كل ما اعتقدته عنها حق، فإنها لا يلزم عن ذلك أنهما العلة في حفظ وجودي ولا خلقي وإيجادي باعتباري شيء مفكر" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 162). فالوجود الجسماني ليس وجود جوهري، بل هو وجود يعقب الوجود الحقيقي الذي تسببه علة أخرى تتمثل في فكرة االكائن الكامل، التي خلقها الله معنا وأودعها في نفوسنا، " والحق أنه لا ينبغ أن نعجب أن الله حين خلقني غرس هذه الفكرة لتكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته" (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 163).

فلا يمكن أن يكون الإنسان خالق لنفسه لان خلقه لا بد أن يكون مرتبط بخالق من شأنه أن يحقق استمرار وجود الإنسان في الزمن،" حيث إن استمرار وجود الإنسان في الزمن ككائن مخلوق حي؛ يحتاج أيضا إلى قوة تكون هي السبب وراء هذه الاستمرارية والخلق الدائم في كل لحظة، ولما كان الله، هو الذي خلق الإنسان، فان

الله هو الذي يخلق الإنسان في كل لحظة خلقا جديدا" (مهدي، 1983، صفحة 144). ومن هنا علينا أن نسلم تسليما مطلقا بوجود إله كامل كفكرة فطرية أودعها الله في الإنسان ولا يمكن التشكيك فيها.

وبعد استعراض جميع الأدلة التي وظفها ديكارت في برهانه على وجود الله، يمكن القول أن الحلقة المهمة في بناء هذه الأدلة هي "الكوجيتو" الذي يعتبر أساس الفلسفة الديكارتية، فإدراك وجود "الذات المفكرة بالحدس لا بالقياس؛ هو ما يمنحها صفة اليقين الأول الذي تنبني عليها اليقينيات الأخرى(الإله، والعالم). ، إذ ما كان يستطيع ذلك لولا إثباته أولا "للأنا المفكرة" الحاصلة على مجموعة من الأفكار الفطرية؛ ومن بينها فكرة الكائن اللامتناهي.

ثانيا: إله سبينوزا

كبداية الحديث عن فكرة الله عند باروخ سبينوزا **Baruch (Spinoza 1632-1677)**، يستوقفنا ذلك القول الذي صرح به ألبرت أنشطاين (**Albert Einstein1879-1955**)؛ بأنه يؤمن بإله سبينوزا الإله الذي تجلى في تناغم الكون؛ فهل هذا يعني بأنه جسد الإله في العالم الطبيعي؟ وما علاقة الكون بالإله الذي يؤمن به سبينوزا؟

1- النقد التاريخي للدين:

"يرى سبينوزا أن هناك نمطين من المعرفة بالله مختلفتين كلية في طبيعتهما، هناك من جهة؛ المعرفة العقلانية الواضحة والمتميزة؛ ومن جهة أخرى المعرفة المؤسسة على الوحي التي يربط بها المرء بالإيمان، وتفترض أن المؤمن لا يملك هذه المعرفة الفلسفية، هذه الأخيرة جعلها سبينوزا موضع النقاش ولم يسبق لغيره أن خاض فيها" (جان، 2017، صفحة 123).

هذا الأمر الذي جعل سبينوزا يكون محل رفض واستهجان خاصة من طرف رجال الدين واتهامه بالإلحاد، وهذه النظرة الرافضة له كانت نتيجة الأحكام المسبقة للاهوتيين وعدم قبولهم لحرية التفلسف، وقد رد سبينوزا عن هذه الاتهامات عندما أعلن عن رغبته في رسالته في اللاهوت والسياسة، مبينا من خلالها أن حرية التفلسف لا تشكل خطرا على الإيمان ولا على سلام الدولة، بل إن القضاء

عليها يؤدي إلى ضياع السلام والتقوى في آن واحد، ويبين أيضا أن غرضه من نشر هذه الرسالة هو التصدي للأحكام المسبقة للاهوتيين التي تعتبر أكبر عائق أمام الفلسفة، والرد على اتهامه إياه بالإلحاد، والتصدي لكل من يقف أمام حرية التفكير والتعبير التي أصبحت أمرا مستعصيا" (جان، 2017، صفحة 124).

رغم اتهامه بالإلحاد إلا أنه جعل من الله موضوعا خصبا ومهما في دراساته خاصة في كتابه "علم الأخلاق"، الذي حاول من خلاله وصف الإله والحديث عن الحب الإلهي، أما كتابه "مقالات في اللاهوت السياسي" تكلم بشكل مفصل عن رُقم موسى ودور الإله في تطور القانون المدني. وقام بممارسة النقد التاريخي على النصوص الدينية حيث" اعتبر أنه لا يوجد فرق بين الظاهرة الطبيعية والنص الديني، فكلاهما يخضع للعقل وقواعده، وقد كان سبينوزا أول من حمل لواء النقد التاريخي للدين" (سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 2005، صفحة 19)، انطلاقا من هذا التشابه بين الظاهرة الطبيعية والنص الديني مارس سبينوزا النقد على النصوص الدينية، "فكان نقده نقد عقلي يقوم على استعمال العقل الرياضي الهندسي، يقوم على فكرة النور الفطري التي ميزت الطرح السبينوزي، ونقد علمي يُخضع النص الديني للقواعد الثابتة كقواعد المنهج التجريبي في دراسة الظاهرة الطبيعية (سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 2005، صفحة 21)".

كان نقد سبينوزا متميزاً جمع فيه بين المنهج العقلي والمنهج العلمي؛ منتهجا طريقا علميا عقليا في تحليل ونقد النصوص الدينية مما جعل هذا العمل لا يختلف عن العلم نفسه؛ بل اعتُبر هذا النقد علما جديدًا أدرك سبينوزا أهميته وأخضعه للتحكيم العقلي والمنهج التجريبي رغم صعوبة الموضوع.

والهدف من هذا النقد هو لتبيين الزيف والعمل على التحقق من صحة الكتاب المقدس كوثيقة تاريخية، " فقد رفض سبينوزا وجهة النظر المحافظة التي تثبت المصدر الإلهي للكتاب المقدس قبل إخضاعه للنقد قبل تطبيق قواعد المنهج التاريخي، وتكون مهمة النقد في هذه الحالة تبرير محتوى الكتاب؛ فقام بتحليل أسفار التوراة مبينا

حقيقتها، فالأسفار الخمسة لم يكتبها موسى بل كتبها إنسان آخر (سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 2005، صفحة 22)"، فرغم عناد اللاهوتيين ورجال الدين على الإيمان بالكتاب المقدس وادعائهم بأنه محفوظ ولا يشُوبه الخطأ والتزييف، وأنه لا داعي لممارسة النقد والتمحيص على النصوص الدينية إلا أن هذا لم يمنع سبينوزا من تجاوزهم، وتجاوز حتى الصدق البديهي الذي آمن به ديكارت آنذاك، وقدم ملاحظات نقدية بينت التناقض الموجود في الروايات الدينية والأسفار وشكك في مصدر الأسفار وأن يكون موسى هو من كتبها، معتمدا على التمحيص والتتبع التاريخي للأحداث كما ذُكرت، وعمل على تبيين تناقضاتها باعتماده على مجموعة من الخطوات حصرها في ثلاث وهي:" معرفة خصائص طبيعة اللغة التي دُونت بها أسفار الكتاب المقدس، جمع النصوص وفهرستها في موضوعات رئيسية، معرفة الظروف والملابسات التي حدثت فيها الرواية (سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 2005، الصفحات 37-39) ".

وفي انتقاده للمعرفة بالله المؤسسة على الوحي بواسطة "النبي"؛ حيث أن النبي يؤول ما أوحى به الله له، لكن الأشياء اختلفت تأويلاتهم، واستعانوا بالصور للحديث عن الله. غير أن سبينوازا رفض تلك التمثلات التي أخذت طبيعة مادية وحسية، فقد حكى الأنبياء عن الله تمثلات مختلفة مستعينين بصور مادية، فمنهم من تمثله بالنار، والأخر تمثله بأنه مستوي على العرش، ومنهم من رآه عجوزا ملتحفا بالبياض،أو نورا ساطعا....، هذه الصور المادية المختلفة المرتبطة بالسياق التاريخي بعيدة كل البعد عن المعرفة العقلية بالله المجردة عن طابعها الحسي،" وبهذا فصل سبينوزا بين المعرفة بالله التي تصدر عن العقل، وتلك التاريخية (جان، 2017، صفحة 126) "

كان موقف سبينوزا من الأديان خاصة السماوية منها رافضا حيث وصفها بأنها خرافة منظمة مما جعله عرضة للمهاجمة خاصة من رجال الدين رغم أنه نشأ في عائلة يهودية متدينة، ويبدو أن الوضع الاجتماعي والفكري الذي كانت تعيشه هولندا آنذاك فتح المجال لهذا المفكر للإدلاء برأيه الرافض للأديان تحت لواء الحرية

المطلقة في اعتناق العقيدة التي يريدونها والتسامح الديني؛ في وقت كانت فيه الحرية الفكرية أمر مستصعب في الكثير من المجتمعات.

2- صفات الله واقترانه بالطبيعة:

الله عند سبينوزا هو مركز التفكير والاهتمام. الله هو الطبيعة هو كل شيء وُجد ويوجد وسيوجد، فقد حاول سبينوزا في كتابه "علم الأخلاق" أن يوضح الأمر بوصف الله حيث يقول في التعريف السادس في مؤلفه: " أعني بالله كائنا لا متناهيا إطلاقا، أي جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية (سبينوزا, باروخ، 2009، صفحة 40) "، ووصفه هذا قريب من وصف المتصوفة، فعرّف الله بأنه مجموعة لا نهائية من الجسيمات والتي تتجمع لتشكل أي شيء وكأنها مجموعة من الذرات حيث يقول في القضية الخامسة عشر في كتابه علم الأخلاق:"كل ما يوجد إنما يوجد في الله ولا يمكن لأي شيء أن يوجد أو يُتصور بدون الله (سبينوزا, باروخ، 2009، صفحة 45) ".

أي لا يمكن لأي شيء أو أي موجود في ذاته أن يوجد خارج الله، فكل شيئ يرتبط بجوهر، وهذا الجوهر يمثل حقيقة الطبيعة الإلهية فلن يُتصور أ شيء خارج الله.

في هذا الوصف يظهر التباس؛ فإذا كان الله جوهر لامحدود من الجسيمات ويوجد في كل شيء والمقصود بهذا الأشياء المادية فهل هذا يعني أن إله سبينوزا ذو طبيعة مادية؟ ومن هذا المنطلق فالأمر كذلك، يبدوا أن سبينوزا يرى بأن المادة ماهي إلا تعبير عن الله وبعيد كل البعد عن الوصف الروحاني، فالله عنده هو الطبيعة.

إن حديث سبينوزا عن الطبيعة وأفكاره عنها يتكرر دائما فيها ربط الطبيعة بالجوهر، "والجوهر عند سبينوزا يعني ما يوجد في ذاته، ويُتصور بذاته: أي ما يتوقف بناء تصوره على تصور آخر (سبينوزا, باروخ، 2009، صفحة 31) "، فالجوهر هو ذلك الكائن الذي ليس فوقه شيء أنه حقيقة تلك الحقيقة التي لا تحتاج سبب لتشكلها، على غرار الأشياء الأخرى التي تحتاج إلى عله لوجودها، حيث يوضح سبينوزا هذا في القضية السادسة:" لا يمكن لجوهر ما أن ينتُج عن جوهر آخر" (سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، 2005، صفحة

35) اي أن سبينوزا يرفض مبدأ السببية ويرفض أن يكون أي جوهر علة في تكون جوهر آخر، فطبيعة الجوهر تكمن في أنه موجود أنه موجود وأنه علة لذاته وماهيته تتحقق في وجوده مباشرة.

ومن هنا يتطابق مفهوم الطبيعة عند سبينوزا مع الطرح المسلم به لفكرة الله، حيث يقول:" الله أعني جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية- واجب الوجود" (سبينوزا, باروخ، 2009، صفحة 40)، فالجوهر من طبيعته أنه موجود وأزلي لا متناه ولا محدود، بل لا يمكن أي يكون الله غير الجوهر بمفهوم سبينوزا. لكن إذا ثبت عن هذه الأفكار بأن الله هو الطبيعة، فالطبيعة تفتقر إلى الوعي تخضع للعشوائية إذا كانت جوهر موجود بذاته فماذا يترتب عن هذا التصور للإله من نتائج ؟

ثالثا: ديكارت وسبينوزا بين التوافق والتعارض حول فكرة الله:

بعد هذه القراءة لتجليات الفكر الديكارتي والسبينوزي حول الله يمكننا القيام بمقارنة خاصة تحدد مختلف الالتقاءات والتنافرات في تفسيرهم لهذه المعرفة ومنهجهم في الوصول إلى إثبات وجود الله وتحديد صفاته. ويمكن تحديد هذه المقارنة في النقاط التالية:

"يتفق ديكارت وسبينوزا حول إقامة البرهان الأول القبلي على فكرة صادقة تعبر عن بناء الماهية الإلهية الحقيقية واندفاعها الدينامي في أثناء وضعها لواقعها الوجودي الخاص" (جيمس، 1983، صفحة 93)، أي أنهم ينتقلون في هذا البرهان من مبدأ الماهية الواقعية للإله ليلزم عن هذا بالضرورة حقيقة وجوده وإثبات هذا الوجود، أي أن الله هو علة لذاته وعلة للموجودات وهو الجوهر الذي لا يخرج عن ماهية الكائن الكامل عند ديكارت، والجوهر ككائن ليس فوقه شيء على حد تعبير سبينوزا.

يبدوا أن الانتماء العقلاني لكل من الفيلسوفين جعلهما يلتقيان أيضا من جديد في معالجتهم للمسألة، حيث جعل كل من ديكارت وسبينوزا المعرفة العقلية هي السبيل الأوثق للوصول إلى الحقيقة الدينية وتجاوز الطريقة التقليدية التي لم تتجرأ على معالجة القضايا الدينية بممارسة فلسفية.

"فقد اتفقا في أن العقل هو السبيل إلى رد كل الهجمات الشك، وان المنهج العلمي يمكن أن يتكيف داخل فلسفة تجعل الأولوية لهذا العقل في تسوية القضايا، واتفقوا -فضلا عن ذلك- على أنه لابد أن تقوم نظرية على الإله بدور رئيسي في أعادة بناء فلسفية" (جيمس، 1983، صفحة 113)، حيث كانت قراءة كل منهما مساهمة فريدة في الفلسفة الحديثة احتلت فيها فكرة الله مكانة كبيرة واهتماما فريدا، وشكلت بهذا فكرة الله تمظهرا جديدا في أرجاء المذهب العقلاني.

لم يسلم كل من ديكارت وسبينوزا بعد خوضهم في المسألة الإلهية من الانتقادات اللاذعة والاتهام بالإلحاد، فحاولا الدفاع عن عقيدتهما، فجاءت ردود ديكارت في كتابه تأملات ميتافيزيقية مبينا أن منهجه الجديد هو في صالح الدين والعقيدة بل هو سلاح ضد أللإيمان، نفس الشيء قام به سبينوزا حيث بين أن الغرض من النقد التاريخي للدين هو في خدمة الدين وأن المعرفة العقلية من شأنها أن تقف على الحقائق وتثبيت العقيدة الصحيحة الخالية من التناقضات.

من خلال هذا يمكن القول أن سبينوزا مشى على خطى ديكارت وأكد الكثير من القضايا الديكارتية" واعتبره البعض الديكارتي الوحيد الذي استطاع أن يطبق المنهج الديكارتي خاصة في مجال الدين، رغم اختلافاته معه (مصطفى، 2015، صفحة 102)". فأين تكمن هذه الاختلافات؟

إن وصف سبينوزا لله كان وصفا اقترن فيه الله بالطبيعة، فجعل الله والطبيعة شيئا واحدا، فالله بوصفه جوهرا في فلسفة سبينوزا ربطه بالجسيمات المادية وتصبح بهذا الطبيعة الإلهية طبيعة مادية، عكس ديكارت الذي تصور الله كجوهر بطبيعة أخرى مجردة بعيدة عن كل ما هو مادي حيث يرى بأن فكرة الجوهر وجودها ذهني وصفات اللامتناهي بعيد كل البعد عن الصفات المادية المتناهية، يقول ديكارت في وصفه لله" أقصد بلفظ الله جوهرا لامتناهيا، أزليا، منزها عن التغير، قائما بذاته، محيطا بكل شيء، أنا وجميع الأشياء"، (ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، 2009، صفحة 153) ففكرة الجوهر اللامتناهي عند ديكارت هي فكرة موجودة في النفس ومستقلة عن أي وجود متناه (جميع الموجودات بما في ذلك العالم الطبيعي).

إن فكرة اللامتناهي عند ديكارت يعتبرها نقطة انطلاق كما صرحنا من قبل، لم يتوصل إلى إثباتها في البداية، بل لم يتمكن من ذلك إلا بعد إثبات وجود الأنا المفكرة،" فبعد أن أثبت ديكارت وجود الذات المفكرة جعل منها قاعدة لإثبات وجود الله، حيث أن كل قضية تبلغ من الوضوح ما بلغته قضية "أنا أفكر إذا أنا موجود"، قضية صادقة ويقينية " (نجيب، 1999، صفحة 115). من هنا تصبح فكرة الذات هي المنطلق ومن خلالها أثبت وجود الله كمبدأ أول. لكن سبينوزا لم ينطلق من الأنا المفكرة بل ينطلق من الله ذاته أو من الطبيعة، فيبدوا أن طريق سبينوزا كانت أكثر اختصارا من مراحل الشك الديكارتي.

خاتمة:

في الأخير يمكن القول أن فكرة الله تمثل حلقة مهمة في الدراسات الفلسفية الدينية، وليست فكرة بسيطة إنما معقدة ومركبة ، يظهر هذا التعقيد في الاختلاف القائم بين الفلاسفة ولعل هذه القراءة الموجزة للموضوع عند كل من ديكارت وسبينوزا بينت ذلك، فكان مصدرها غير ثابت بين النفس عند ديكارت والطبيعة عند سبينوزا.

أكمل سبينوزا عمل ديكارت بقراءته للفلسفة الديكارتية وعمل على تقصي المسألة، لكنه خالفه في توجهه المادي وقال بفكرة وحدة الوجود التي تقر بأن الكون والله شيء واحد وليس نظريتين مختلفتين (روحي ومادي) كما عبر عنها ديكارت، فالله هو حقيقة خالدة في جوانب الكون وقوانين الطبيعة ما هي إلا تعبير عن الإرادة الإلهية، ومن هنا يمكن القول بأن سبينوزا أحدث قطيعة مع فكر ديكارت الميتافيزيقي وجعل العلة والجوهر والله شيء واحد.

إذن مما تقدم وكمحاول للفصل في الإشكالية المطروحة يتضح لنا أن مسار سبينوزا الذي انطلق فيه من الميتافيزيقا الديكارتية ذاتها والمبدأ المشترك في تجاوز الفكر اللاهوتي الأرسطي والسكولائي خلص إلى تجاوز العلية التي بنى عليها ديكارت براهينه على وجود الله، خاصة انطلاقه من الذات واثبات وجود الله فوجود العالم. استبدل إذن سبينوزا هذا النظام بنظام آخر أكثر مادية وتصور الكمال الإلهي

في الطبيعة بوصفها الجوهر الحقيقي، أما ديكارت فقد تصور جوهر لامتناه مختلف صادر عن الفكر وحيويته ومتصل بالنفس بعيد عن كل ما هو مادي، وجسدي انفعالي.

المراجع:

- ديكارت، رونيه. 1968، **مقال عن المنهج**، تر: محمود محمد الخضيري، الطبعة الثانية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

- ديكارت، رونيه. 2009، **التأملات في الفلسفة الأولى**، تر: عثمان أمين، دون طبعة، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

- رابوبرت.أ.س،2012، **مبادئ الفلسفة**، تر: أحمد أمين، دون طبعة، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.

- سبينوزا، باروخ. 2005، **رسالة في اللاهوت والسياسة**، تر: حسن حنفي، الطبعة الأولى دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

- سبينوزا، باروخ. 2009، **علم الأخلاق**، تر: جلال الدين سعيد، الطبعة الأولى، لمنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان.

- غروندان. جان، 2017، **فلسفة الدين**، تر: عبدالله المتوكل، الطبعة الأولى، مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، الرباط، المملكة المغربية.

- فضل الله .مهدي،1996، **فلسفة ديكارت ومنهجه**، دراسة تحليلية ونقدية، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

- كولينز جيمس، 1983، **الله في الفلسفة الحديثة**،تر: فؤاد زكريا، دون طبعة، الناشر مكتبة غريب، القاهرة، مصر.

- لوقا. نظمي، 2003، **الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت**، دون طبعة، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر.

- محمود، زكي نجيب. 1986، **قصة الفلسفة الحديثة**، دون طبعة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

- النشار، مصطفى. دون سنة، **مدخل جديد إلى فلسفة الدين**، الطبعة الثانية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر.

للإحالة على هذا المقال:

- عبيد الله زهرة، بلحنافي جوهر، (2022)، «**فكرة الله بين ديكارت وسبينوزا**» . **المواقف**، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 1167- 1185.